الرافـــعي

في ذكراه الأولى

للأستاذ محمد سعيد العريان

« هي الكلمة التي أذاعها الأستاذ محمد سعيد العريان من محطة الاذاعة الفلسطينية بالقدس في مساء الاثنين ٩ مايو سنة ١٩٣٨ لمناسبة تمام سنة على وفاة فقيد الأدب العربي المرحوم مصطفى صادق الرافعي »

سيداتي ، آنساتي ، سادتي

سلام الله عليكم أهل هذه الأرض الطيبة ... وممذرة ، وشكراً ...

لكأني بكم ترهفون السمع لتسمعوا ما يمكن أن أحدثكم به عن الرافعي في ذكراه الأولى ، وما أنا بمستطيع في هذه الفترة القصيرة من الزمن أن أبلغ ما أويد وتريدون من الحديث عن الرافعي

لم يكن الرافعي أديباً كبعض من نقرأ لهم من أدباء الصحافة ولكنه كان علماً من أعلام الأدب ، وإماماً من أئمة الدين ، وبرهاناً من براهين العربية تجالد به جبين يعوزها البرهان

ولقد يكون من فضول القول أن أتحدث إليكم عن أدب الرافعي ، وآثاره الأدبية بين أيديكم وتحت أعينكم ؛ وإنكم لتعرفون أدبه وتعرفونه بأدبه . ولكني قد صحبت الرافعي عمراً من عمري ، فعرفته أكثر مما يعرفه الناس ؛ فليكن حديثي الليلة عن الرافعي الذي عرفته ...

لقد سمعت إسم الرافعي لأول مرة منذ بضع عشرة سنة ، وكنت يومئذ غلاماً حدثاً ، لا أكاد أفهم ما يلقى إليّ ، سمعت به وأنا طالب في الصفوف الأولى ، فسمعت اسماً له جَرْس ورنين ، وله نشيد تتجاوب أصداؤه في جوانب نفسي ، فحبّب إليّ من ذلك اليوم أن ألقاه ...

وقال لي رفيق : « وَيْ ! أتعرف من ذلك الذي أخذت عليه الطريق عامداً ؟ » قلت : « صه ، لا يسمعك فيسوءه في جوابه ! » قال : « لا عليك ! إن في أذنيه وقراً فلا يسمع ! »

وتبدلت في نفسي صورة بصورة ، واحمى ألم ليحل في نفسي من بعده ألم آخر ... وعرفت وقتئذ لماذا لم يرفع عينيه إليّ ولم يردّ التحية ...

ولقيته بعد ذلك مرات كثيرة في الطريق ، وفي القهوة ، وفي السيما ؛ وقرأت له مرات أكثر في الكتب ، وفي الصحف وفي المجلات ، وعرفته ولم أزل كل يوم أزداد عرفاناً به ، ولكني لم أعرفه العرفان الحق إلا بعد هذه الحادثة بعشر سنين ... حين جلست إليه لأول مرة في دار كتبه من داره ، عرفته على حقيقته وفطرة نفسه ، فكأنني لم أعرفه قبل ذلك اليوم ... وما فارقته من بعد حتى فرق بيننا الموت . يرحمه الله !

إنني لأحس حين أذكره الساعة كأنني لست وحدي ، وكأن روحاً حبيبة تطيف بي وترف حولي بجناحين من نور ، وكأن صوتاً نديّاً رفيع النبرات يتحدث إليّ من وراء الغيب حديثاً أعرف جرسه ونغمته ؛ وكأن عينين تطلان عليّ من عالم غير منظور لتأسراني أسراً وتلهماني الفكر والبيان ؛ ولكنني لا أرى ؛ ولكنني لا أسمع ؛ ولكني هنا وحدي ، تتغشاني الذكرى فتخيّل إليّ ما ليس في دنياي . هيهات هيهات لوهم الأماني !

لقد كان هنا صوت يتجاوب صداه بين أقطار العربية . لقد كان هنا إنسان يملأ فراغاً من الزمان . لقد كان هنا قلم يعصر صريراً فيه رنات المثاني ، وفيه أنّات الوجع ، وفيه همسات الأماني ، وفيه صرخات الفزع ؛ فيه نشيج البكاء ، وفيه موسيقى الفرح .. خفت الصوت ، ومات الانسان ، وتحطم القلم ؛ ولكن قلب الشاعر مازال حياً ينبض ، لأن قلب الشاعر أقوى من الفناء

في كل يوم يموت أديب من أدباء العربية وينشأ أديب ؛ فأين ، أين الأديب الذي يقوم لما كان يقوم له الرافعي ؟ أين ... أين الأديب الذي ينتدب بعد الرافعي ليقف لكل من يحاول التقحم على قدس القرآن ؟ أين ... أين الأديب الذي يقف قلمه وبيانه للدفاع عن العرب والعربية والاسلام ؟ أين .. أين الكاتب الألمعي الذي يصور طهر الحب ، وسمو الانسانية ، وآلام البشرية وأفراح الحياة ، فتنبثق نوراً في كل قلب ، وتتفجر شعوراً في كل وجدان ؟ أين خليفة الرافعي الذي يقوم على سداد هذا الثغر المعطل ؟ أين حامل اللواء ، وأين صاحب القلم ؟

لقد كان الرافعى عصراً بتمامه من عصور الأدب ، وجيلاً بتمامه من أجيال العرب ، وفصلاً بعنوانه فى مجد الاسلام

* * *

كانت الدنيا تموج من حوله بأناسيها وحوادثها ، وتضطرب حواليه فى أمانيها ونوازيهـا ، وتصطخب فى محيطه بشهواتها ونوازعها ؛ وهو وحده يعيش من هـذا المحيط المضطرب الماثج المصطخب فى دنيا وحده لا يسمع إلا همسات روحه ، ولا يحس إلا خلجات قلبه ، ولا ينظر إلا الهدف الذى يسعى إليه . وهيأه القدر بوسائله العجيبة لهذه الوحدة العقلية منذ صباه حين سلبه السمع ، فعاش حياته بعيداً عن دنيا الناس ، ومضى فى طريقه كما يمضى عابر السبيل : لا يُلقى باله إلى شىء مما حواليه أو يبلغ إلى غايته ...

* * *

لم يكن الرافعى ليعرف شيئاً فى سياسة الحـكومات العربية المتعاقبة ، ولـكنّ له هدفاً عاش يسعى جاهداً لتحقيقه : هو أن يبعث الحمية الإسلامية فى نفس كل مسلم ، ويوقظ النخوة العربية فى قلب كل عربي ؛ فـكان بذلك رسـول العروبة والاسلام إلى كل مسلم وكل عربى ؛ فلا جرم كان بذلك أحب كتاب العربية إلى كل مسلم وكل عربى

حياته الأدبية كلها تدور حول هذا المحور ، ومنشآته الأدبية كلها يسعى بها إلى هذا الهدف ، ومعاركه الطاحنة كلها تنشب فى هذا المعترك ؛ وما عادى عدواً قط من أدباء العربية إلا للدين أو اللغة أو القرآن ؛ وما اتخذ صديقاً من رجال الأدب أو السياسة إلا للدين أو اللغة أو القرآن

وليس من عجب أن تـكون فلسطين هى أسبق بلاد العربية إلى تجديد ذكرى الرافعى ؛ فقد كانت فلسطين هى أحب بلاد العربية إلى الرافعى ؛ وما أحسبه كتب شيئاً يتصل بشأن خاص من الشئون القائمة فى بلد من بلاد العربية ، وإن له فى فلسطين لمقالات يذكرها كل عربى فى فلسطين !

لقد حاول كثير من مؤرخى الأدب أن يتحدثوا عن الرافعى فى حياته ؛ فقالوا شاعر . وقالوا كاتب . وقالوا أديب . وقالوا عالم . وقالوا مؤرخ . ولـكنهم لم يقولوا الـكلمة التى كان ينبغى أن تقال : لقد كان شاعراً ، وكاتبـاً ، وأديبـاً ، وعالماً ، ومؤرخاً ؛ ولـكنه بكل أولئك ، وبغير أولئك ، كان شيئاً غير الشاعر والـكاتب والأديب ، وغير العالم والمؤرخ ؛ كان هبة الله إلى الأمة العربية المسلمة فى هذا الزمان ، لينبهها إلى حقائق وجودها ، وليردها إلى مقوماتها ، وليشخص لها شخصيتها التى تعيش باسمها ولا تعيش فيها ، والتى تعتز بها ولا تعمل لها

وكان يشعر أنه وحده فى الميدان والجميع إلبٌ عليه ، فعاش حياته كلها يصارع ويكافح ، ويقاوم ويناضل ، حتى خر صريعاً وفى يده الراية ؛ لم يتركها حتى انتزعها الموت من يده !

كثر ما قال عنه أعداؤه وغير أعدائه فى حياته : إنه حديد اللسان . إنه لدود الخصام . إنه لا يرعى اعتباراً مما تقوم به الصلات بين أهل الأدب ، حين ينزل إلى معترك من معارك النقد ... صدقوا ، ولـكن ... أرأيت ممرة على البدوى الثائر لعرضه أن يسفك الدم ؟ إنه هو هو ؛ فمن ذلك كانت شدته وصرامته ولدده فى الخصام : فى سبيل القرآن ، ومن أجل العروبة ، ولـكرامة الإسلام . كان ذلك عرضه الذى يحرص عليه أن ينتهك ؛ فمن ثم كانت خصوماته الأدبية كلها فيها معنى الدم !

الدين ، واللغة ، والقرآن ، أو العروبة والإسلام : ذلك كان مذهبه فى الأدب ، وله كان جهاده ؛ حتى فى الحب — وللرافعى حب مشهور — وحتى فيما أنشأ من رسائل الحب ، لم يكن الرافعى يعتبر إلا مذهبه والهدف الذى يسعى إليه : للدين ، وللغة ، وللقرآن ...

من شاء فليقرأ كتبه الثلاثة فى فلسفة الجمال والحب ، ليرى فيها كيف تسمو روح العاشق على شهوات البشرية حتى تتصل بخالقها الأعلى ؛ ثم ليرى العربية أسلوباً جديداً ، فيه عمق الفن ، ودقة التعبير ، ووضوح الأداء ، حتى فى الترجمة عن أعمق ما تجيش به خفايا النفس الإنسانية

* * *

ولأدب الرافعى ميزة ليست لـكثير من أدباء الجيل ؛ فهو أدب عليه طابع الخلود وتلك آداب إلى زوال . هذا أدبه بين أيدينا وتحت أعيننا ، ما تزال تدفعنا إليه دوافع من أنفسنا فى فترات متقاربة أو متباعدة ، لنعيد قراءته ونتملى ما فيه من جمال